مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (23) العدد (16)2001
Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research-Arts and Humanities Science Series Vol (23) No (16) 2001

الشكوى من المرأة في شعر الأحوص الأنصاري

الدكتور عبد الكريم يعقوب*

علي عبد الله**

(قبل للنشر في 2001/12/4)

□ الملخّص □

الشكوى *إظهار ما يكابده المرء من ألم نفسي، أو جسدي ناتج عن الظلم، والقهر، وسيطرة قوى خارجة عن إرادته ما يقف أمامه عاجزاً لا يستطيع له رداً.*

و قد حظيت الشكوى من المرأة بنصيب وافر من شعر الأحوص، ولا يمكن أن نفسر ذلك إلا بكون المرأة قد تجاوزت عنده المدلول الجنسي إلى مدلولات أكثر عمقاً، وأهمية، فقد أضحت رمزاً للحلم بكل ما يعنيه لدى الرجل من قوة وامتداد، وترسيخ وجود . إن الأنوثة في لا وعيه تمثل الحياة، والجنة، والهدى، والفضيلة، والراحة، والسكينة، ولذلك عاملها لغوياً معاملة الأنثى . هذه المعاني الأنثوية النبيلة تعلل كثرة الشكوى من المرأة في شعر الأحوص الذي سعى وراء المرأة .

لقد عكس شعره عالم المدينة التي انتعش فيها الغناء والطرب، بما فيه من إيقاع راقص، والشكوى من نساء اشتهرن بالغناء كجميلة، والذلفاء، وسلامة، وغيرهن، وقد فاضت أبياته بالدموع،و رددت الصحراء أصداء استغاثته مما يعاني من الغرام، والسقام، والحرمان . وغير ذلك من المشاعر التي تلمسناها في أشعار الحب العفيف ما يدفعنا إلى التشكيك في انتماء الأحوص إلى الاتجاه العمري .

---

*أستاذ في قسم اللغة العربية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

** طالب دكتوراه في قسم اللغة العربية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (23) العدد (16)2001

Tishreen University Journal for Studies and Scientific Research-Arts and Humanities Science Series Vol (23) No (16) 2001

Complaint of Women Repulsion in the Poetry of Alahwas Alansari

Dr. Abdul Kareem Yakoub*
Ali Abdulla**

(Accepted 4/12/2001)

□ ABSTRACT □

Complaint, in general, is one's showing of psychological or physical pain caused by oppression, suppression or dominance of irresistible external forces where one stands helpless unable to drive back.

The issue of complaint of women repulsion in the poetry of Alahwas is quite predominant. In fact, this cannot be clearly understood unless we come to know what a female, as he conceived her, was far more than a sexual symbol; she definitely meant something much deeper than that, and far more significant. A woman became in Alahwas 'mind a token of ambition in its strength, extension and existence. Femininity, in Alahwas' subconscious, represents life, paradise, guidance, virtue, relief and tranquility. It was dealt with, linguistically speaking, in the same way as a female was dealt with. These noble feminine considerations explain the excessive complaint of women repulsion in the poetry of Alahwas who spent much time pursing women.

In fact, Alahwas's poetry reflected urban life where singing, amusement and rhythmical dancing flourished. That urban life, was also full of complaint of women repulsion, those women like Jameela, Zalfaa, Salma and others who were famous singers. Alahwas 'poetic lines were soaked with tears; and the desert itself reiterated the echoes of his love, sickness and rejection and other numerous and painful feelings that are quite common in Platonic love poetry. Therefore, we tend to be dubious that Alahwas belongs to Omar Ibin Abi Rabeea's trend.

*** Professor at Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria**
**** Ph.D. student at Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Tishreen University, Lattakia Syria.**

المقدّمة:

تعد المرحلة الأموية الممتدة من سنة 41هـ إلى سنة 132هـ من أخصب المراحل التاريخية في حياة الشعر العربي لما طرأ على المجتمع العربي من تغيرات اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وفلسفية أثّرت في البنية النفسية للفرد تأثيراً عميقاً، فأثرت التجربة الشعرية لهذه الفترة، وأسبغت عليها ملامح جديدة،أُضيءَ بعضها في دراسات سابقة، وما زالت ملامح أخرى في حاجة إلى الكشف، لمعرفة الجوانب الشعرية التي تميز بها شعرالأمويين، ولعل بعض الأضواء الخافتة، كانت سبباً في نقل صورة غير واضحة لبعض الشعراء المتميزين في هذه الفترة، كالأحوص الذي يمثل في شعره تجربة خاصة تستحق الدراسة، لتصحيح بعض المفاهيم المتسرعة التي بنيت حول شعره، وإجلاء الغموض عن جوانب أخرى من تجربته، لم توضح بعد . وقد وجدنا أن المنهج الذي يحقق هذا الغرض، يجب أن ينطلق من ربط السياق ببنية النص لفهم مكوناته، إذ إن تحليل عناصر النص بمعزل عن الظروف الخالقة للتجربة،سوف يفضي إلى نتائج غير صحيحة .

السياق

و ننطلق من تحديد سياق الحال في تجربة الأحوص، ونظرية سياق الحال نظرية لغوية تطورت على يدي " فيرثJ.R.Firth " والذين تتلمذوا على يديه، وتقتضي أن ينظر إلى المعنى على أنه علاقات متشابكة متداخلة، فهو ليس – فقط – وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة، ولكنه – أيضا–ً حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع، فالجمل تكتسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث، أي من خلال سياق الحال context of situationو لذلك اقترح "فيرث " أن تدرس اللغة بوصفها جزءاً من المنظومة الاجتماعية social process (1)، ويبدأ تحديد سياق الحال بالتعريف بالشاعر، فالمرحلة التي عاش فيها، وأهم المؤثرات الاجتماعية

الشاعر :

الشاعر كما يُعرّف : هوعبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصاري من بني ضبيعة : شاعر هجّاء صافي الديباجة، من طبقة جميل بن معمر، ونصيب كان معاصراً لجرير والفرزدق . وموطنه المدينة، تغزل بنساء بعض أشرافها، فجلده عامل المدينة لسليمان بن عبد الملك، أبو بكر بن محمد بن عمرو، وأقامه على البُلُس، وقيل إن ابن حزم عامل الوليد على المدينة، عذّبه لمراودته الغلمان . وأمر عمر بن عبد العزيز به وبعمر بن أبي ربيعة إلى دمشق، فنفاه إلى " دَهْلَك "(2)، ثم عفا عنه يزيد بن عبد الملك، فزار دمشق وتوفي فيها حوالي 110هـ/728م . لقب الأحوص لحوص كان في عينيه، وهو ضيق يعتري مؤخّر العين، وكان أحمر كأن به وَحَرَة، دميماً قصيراً، وهو ينتمي إلى عائلة مرموقة على صلة بالبيت المالك (بني مروان)(3)،و يرجح عادل سليمان جمال أنه توفي في خلافة يزيد بن عبد الملك (101هـ–105 هـ) (4)

و من أجل استكمال السياق، لابد من حديث عن المكان الذي نشأ فيه الأحوص، وتفتحت فيه موهبته الشعرية " المدينة " في زمن الأحوص، لأن الحياة الاجتماعية في المدينة وسمت شعر الأحوص بميسمها بل إننا نستطيع أن نكتشفها من خلال شعر الأحوص الذي تردد على مافيها من أماكن لهو، وعشق المغنيات فيها، فتغزل بهن في شعره، وكان شعره

---

(1) الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، د. يحيى أحمد، مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، ص81–82 .

(2)دَهْلَك بفتح أوله وسكون ثانيه، ولام مفتوحة، وآخره كاف، اسم أعجمي معرب، ويقال له دهليك أيضاً : وهي جزيرة في بحر اليمن، وهو مُرْسىً بين بلاد اليمن والحبشة، بلدة ضيقة حرجة حارة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفَوه إليها .انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد الثاني، ص 492 .

(3) انظر ترجمته في : طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، ج2/655–668،و ا لشعر والشعراء، ابن قتيبة،ج1/518–521،والأغاني، الأصفهاني، ج4/224–268. والأعلام، خير الدين الزركلي،،ج4/257. تاريخ الأدب العربي، لبروكلمان، ج1/196 197 .

(4) شعر الأحوص الأنصاري، ت :عادل سليمان جمال،، المقدمة،ص 20

الراقص بإيقاعه مناسباً لهذه الحياة التي أنتجته، كما في الأبيات التي تغزل بها بالذلفاء مثلاً (5):

إنما الذلفاءُ همّي فَلْيَدَعْني من يلوم
أحسنُ الناسِ جميعاً حين تمشي وتقوم
حبّبَ الذلفاءَ عندي منطق منها رخيمُ
أصلُ الحبلَ لترضى وهي للحبل صروم
حبّها في القلب داءٌ مُستَكِنٌّ لا يَريمُ

كانت المدينة آنئذ مهداً للغناء، تعج بالمغنين، كمعبد، وسائب خاسر، ومالك ابن أبي السمح، وغيرهم، وبالمغنيات كجميلة وعزّة الميلاء، وسلاّمة الزرقاء، وعقيلة، وسلاّمة القس، وحبابة، وغيرهن . وأقبل أهل المدينة إقبالاً شديداً على سماع الغناء، وارتياد دوره فلم يبق فيها عالم ولا فقيه ولا زاهد إلا وشارك فيه، إما بغزل رقيق يتلقفه المغنون فيصوغون أبياته ألحاناً عذبة، كما نعرف عن عروة بن أذينة، وهو معدود في الفقهاء والمحدثين، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحد فقهاء المدينة السبعة، وإما بالإقبال على سماعه والافتتان به كما نعرف عن أبي السائب المخزومي عابد المدينة، وإما بأصوات يأخذها سائر المغنين كمالك بن أنس (6)،وقد أهّلت الأحوص شاعريته لأن يكون نجماً في دور الغناء، خاصة دار جميلة وكان الأحوص شديد الافتتان بها، كثير التردد عليها لايكاد يفارق مجلسها(7) . ومن ثمّ لا بد أن يكون للمغنيات نصيب من الشكوى،عند الحديث عن الشكوى من المرأة في شعر الأحوص .

تحديد مفهوم الشكوى :

عندما نحدد مفهوم الشكوى من خلال ماورد في المعجم العربي اللغوي نجد الشكوى : الاشتكاء، تقول : شكا يشكو شكاةً ويستعمل الاشتكاء في الموجدة والمرض، هو شاك: مريض ، وقد تشكى واشتكى، وشكا إلي فلان فأَشكيتُه، أي : أخذت ما يرضاه، والشكو: المرض نفسه قال:

أخٌ إن تشكّى من أذًى كنت طِبّهُ وإن كان ذاك الشكْوُ بي فأخي طبي(8)

وفي الحديث : شَكَوْنا إلى رسول الله (ص) حرَّ الرّمضاء فلم يُشْكِنا . أي: شَكَوْا إليه حرَّ الشَّمس، وما يصيب أقدامَهم منه إذا خرجوا إلى صلاة الظهر، وسألوه تأخيرها قليلاً، فلم يشكِهم، أي : لم يجبهم إلى ذلك، ولم يُزِل شكواهم.

شكَوْتُ فلاناً : إذا أَخْبَرْتَ عنه بسوءِ فعلِه بك،قال ابنُ برّي : الشكاية والشكيّة إظهار ما يصفك به غيرك من المكروه والإشتكاء إظهار ما بك من مكروه أو مرض(9) .

و الشكوى التي نقصدها إظهار ما يكابده المرء من ألم نفسي، أو جسدي ناتج عن الظلم، والقهر، وسيطرة قوى خارجة عن إرادته ما يقف أمامه عاجزاً لا يستطيع له رداً.

و يوظف الشاعر اللغة الشعرية لتحقيق أغراضه من الشكوى، وهي:

- التعبير عن شكواه .
- التّأْثير في الآخر .
- التواصل مع الآخر .

---

(5) شعر الأحوص الأنصاري، ص

(6) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، د. شوقي ضيف، ص46-74

(7) شعر الأحوص الأنصاري، ص191

(8) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ج5/388 باب الثلاثي المعتل من الكاف (شكو).

(9) لسان العرب، ابن منظور، (شكو) 350/2

– مواساة نفسه .

– تجميل الواقع .

– السيطرة على الواقع، وهي السيطرة على الواقع أقصى ما يسعى إليه، ليخرج مما هو فيه في حالة المعاناة الشديدة .

مدلول المرأة:

تحظى الشكوى من المرأة بالنصيب الأوفر من شعر الشكوى في العصر الأموي، فإنها تكاد تكون القاسم المشترك في أشعار الأمويين، في شعر الغزل، والمديح، والفخر، والرثاء، والهجاء، ولا يمكن تعليل ذلك إلاّ بكون المرأة، قد تجاوزت المدلول الجنسي إلى مدلولات أكثر عمقاً وأهمية في حياة الرجل، ولذلك ظهرت الشكوى من المرأة المعشوقة التي تبقى حلم الرجل يسعى إليه فلا يصل، وعندما يتعب يسقم ويموت، وقد ارتبط مدلول المرأة في التراث الشعري، بمجموعة من الثنائيات اللغوية التي تنتمي إلى حقل " الموت والحياة "، أو حقل " السقم والشفاء " الذي يشكل مرحلة ما قبل الموت .

فالاقتراب من المرأة اقتراب من الحياة، وجُودُ المرأة، ارتواء من ماء الحياة، والابتعاد عنها ظمأ وموت . هذا المعنى يتردد في الشعر الأموي، سواء أكان موضوع المرأة محوراً كما في الشعر الغزلي، أم كان استهلالاً لموضوعات أخرى كما في الأحاديث الطللية، وما بين "الموت والحياة"، أو "السقم والشفاء" معاناة وألم، معاناة تبدأ بوقوع الرجل في أسر المرأة وكأنه هدف لها، في حين أن الرجل هو الباحث عن المرأة في الشعر، إلا أن تصوير موقعه فريسة، يعكس حس الشاعر بأنه رهن بقوى خفية تتجاوز قوته – مهما بلغت – ربما هي قوة الرغبة في الحياة والوجود والامتداد . هذا ينقلنا إلى الحديث عن العلاقة بين الذكورة والأنوثة في الميراث اللغوي، لتفهم مدلول المرأة، وقد درج الباحثون على النظر إلى العلاقة بين الذكورة والأنوثة بوصفها علاقة تضاد، في حين أنها علاقة احتواء . إن الأنوثة تتعدّى إلى الكون بوساطة امتلاكها الذكورة التي تحلم في المبالغة في التكوين في أعلى طموحاتها بوساطة تأنيثها : فالفحولة والذكورة والرجولة والشهامة والمروءة والفصاحة والبلاغة ... أنثى . ولم تجد اللغة الذكر مفراً من الأنوثة عندما أرادت أن تبالغ في القوة الدالّة : العلاّمة، النسّابة .. الفعّالة في كل مدلولاتها . إنها الأصل الذي يخرج من رحمه الذكر والأنثى،هي الحياة والجنة والهدى والفضيلة، والراحة والسكينة، والطمأنينة ..في حين أن الموت، والحتف، والضلال، والشقاء، واليأس مفاهيم ذكورية. وتبرز علاقة الاحتواء أو التبعية في بعض الثنائيات،مثل الشمس، والقمر . إن الأرض التي تحتوي كل ما يدركه الإنسان هي أنثى تكرس إحساس الرجل بالانتماء إلى هذا الجنس الضعيف القوي.ولأن مدلول المرأة تجاوز الجنس إلى تحقيق الوجود في" الأم" واللذة في " الحبيبة " والتواصل والامتداد بالولد في الزوجة لا نجد الشكوى في الشعر الأموي قد ارتبطت بامرأة مخصّصةٍ،أمٍّ، أو زوجة، أو حبيبة إلا نادراً، فقد اقتصرت الشكوى أو كادت على الشكوى من المعشوقة التي تمثّل الحياة الهدف بما فيها من متعة.

الشكوى من المرأة في شعر الأحوص

جعل طه حسين الشعراء مذهبين مختلفين(10) وتبعه في هذا الدكتور شكري فيصل(11)، ود.شوقي ضيف (12) ود.إحسان النص(13) مع بعض الخلاف في التسمية، أو في التقسيم .

يضم الأول الشعراء الذين اشتهروا بحب امرأة واحدة كما اشتهر قيس بليلى، وعروة بعفراء، وجميل ببثينة، وكثير بعزّة، ويضم الثاني الشعراء الذين عرفوا العديد من النساء، وتغزّلوا بهن، مثل عمر بن أبي ربيعة . وقد جعل النقاد الأحوص في التيار الثاني، ولعل ذلك راجع إلى كثرة أسماء النساء اللواتي ذكرهن في أشعاره، أو بسبب حياته الماجنة

وقد حاول النقاد إبراز السمات الفنية لكل مذهب .

---

(10) حديث الأربعاء، د.طه حسين،، ج19/2 (11) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص284–285.

(12) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، ص 347 (13) الغزل في عصر بني أمية، ص :59–61

فالمذهب الأول وهو العفيف عُرِّف بأنه فنّ يتّجه إلى وصف العواطف الحارّة التي تعذّب صاحبها، من غير أن تتيح له لذّة مادية، وإنما اللذة الوحيدة التي يجدها الشاعر هي لذة الألم الناجم عن حب من لا سبيل إلى الوصول إليه إلا بالخيال وقد وجد د. شكري فيصل الغزل العذري تعبيراً عن وضع طائفة من المسلمين كانت تتحرج وتذهب مذهب التقى، وتؤثر السلامة والعافية على المقامرة والمخاطرة، وترى أن النفس أمارة بالسوء، وأن من الخير لها أن تصبر، وأن تلتزم ما أمر الله به أن تلتزم، وأن النار قد حفّت بالشهوات فآثرت هذه الطائفة، أن تعدل عن شهواتها، وكانت مثلاً واضحاً للتربية الإسلامية في سموها وتعاليها(14)، وسمات هذا الحب كما يحددها د. إحسان النص : العفّة، وتوقّد العاطفة، والديمومة، والوحدانية في الحب، والمعاناة والشكوى المتصلة، والخضوع المطلق لسلطان المحبوب، وتمنّي ملازمة المحبوب، والقناعة بالحب والحرص على رضا المحبوب، والإعراض عن أقوال العذال، ووصف محاسن المحبوب، وإكبار المرأة (15) .

أما المذهب الثاني فيضم فئة من الشعراء يتخذون الغزل صناعة يصفون بها لذاتهم، وأهواءهم، وافتنانهم فيما يتذوقون من نعيم الحياة، وزعيم هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة،" والغزل العمري تعبير عن طبقة متحررة منطلقة تضع شهواتها وملاذها فوق كل شيء وتلوب في حياتها تنشد هذه الملاذ والشهوات .. إنها لم تنس نصيبها من الدنيا ولكنما نسيت نصيبها من الآخرة، ولم تبتغ الدار الآخرة وإنما ابتغت الفساد في الأرض .. طبقة من سادة قريش وغير قريش وشبابها عادت إلى شيء من حياة فيها غير قليل من بقايا الجاهلية فغلب عليها الخمر والنساء والإماء وأُتيت من هذا النحو" .(16) وسمات هذا الغزل : الصراحة في وصف علاقة الشاعر بفتاته، ووصف محاسن المحبوب،ووصف معاناة الشاعر، وسطحية العاطفة وسرعة انطفائها، والتعلق بأكثر من امرأة واحدة، والنزعة الاستعلائية وقد ضم هذا التيار عمر بن أبي ربيعة، والحارث بن خالد، وأبا دهبل الجمحي، والأحوص الأنصاري (17) . ولعل قراءة جديدة في شعر الأحوص تكشف عدم دقة التصنيف السابق، فالقارىء – على كثرة أسماء النساء اللواتي ذكرن في شعره – يجد صدقاً في العاطفة ومن هنا يمكن أن تكون المرأة التي شكا الأحوص منها تمثل له كل النساء أو كل النساء في نظره امرأة واحدة عانى منها وشكا، ولولا كثرة الأسماء لظننا أنه ينتمي إلى شعراء الغزل العفيف .

لقد سالت دموع الأحوص الغزيرة في طيات شكواه من المرأة، فأضحى شعرالشكوى لديه يكشف خبايا النفس الحزينة المضطربة، المروعة بفاعل مجهول قاهر يفرق الأحبة، ويدمر العلاقات الإنسانية، ودوال دموع شاعرنا عديدة : " ودمع العين يجري "(18) " فلعيني من جوى الحب غرب" (19) " لعينيكِ أسراب من الدمع تسكب " (20) " لقد كنت أبكي والنوى مطمئنة " (21) " إذا ذهبت مني غواش لعبرة .... أظل لأخرى بعدها أتوقع " (22) .

لقد أبكت منازلُ جميلة المغنية الأحوصَ العاشق فذرف الدموع الغزيرة وهو يصف ما نابها من عوامل التغير، بلغة رقيقة استغل فيها مايميز صوت القاف من قوة تعبيرية توحي بالقلق والاضطراب، وحدة الصوت وانحباسه معاً، في قافيته المكسورة التي تعمق الإحساس بالغصّة والقلق، وتصوّرما يعانيه من القهر، وما القهر إلا من الزمن الذي لا تفلت من تأثيره الأشياء، وقد رفع نسبة القاف بشكل ملحوظ في داخل هذه الأبيات، لتضاعف الطاقة التعبيرية(23)

شأنْكَ المنازلُ بالأبْرَقِ دوارسَ كالعَيْنِ في المُهْرَقِ
لآل جميلة قد أخلقَتْ ومهما يطُل عَهْدُهُ يُخْلِقِ
فإن يقلِ الناسُ لي عاشقٍ فأين الذي هو لم يعشقِ

---

(14) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص280 .
(15) الغزل في عصر بني أمية،، 28–30
(16) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص281 .
(17) الغزل في عصر بني أمية، 61
(18) شعر الأحوص الأنصاري،ص198
(19) شعر الأحوص الأنصاري،ص74
(20) شعر الأحوص الأنصاري،ص 75
(21) شعر الأحوص الأنصاري،ص147
(22) شعر الأحوص الأنصاري،ص137
(23) شعر الأحوص الأنصاري،ص163

ولم يبكِ نؤياً على عبرةٍ بداء الصبابةِ والمَعْلَقِ

و تختلف اللهجة الشاكية عندما يشكو من مغنية أخرى هي الذلفاء(24)

إنما الذلفاءُ همّي فَلْيَدَعْني من يلوم
أحسنُ الناسِ جميعاً حين تمشي وتقوم
حبّبَ الذلفاءَ عندي منطق منها رخيمُ
أصلُ الحبلَ لترضى وهي للحبل صروم
حبّها في القلب داءٌ مُستَكِنٌّ لا يَريمُ

حيث نجد الأبيات، على ما تتسم به من إيقاع خفيف رشيق، تؤدي معاني الشكوى التي ربما تخلخلت مصداقيتها بفعل هذا الإيقاع،على الرغم من استخدام ألفاظ تتضمن الداء الباطن الملازم، وهو الحب، بهمه ووجعه اللذين لا يريمان . ونجد الشاعر يغني مشاعره في هذه الأبيات، وينقل عبرها المعاني التي كان يطرب لها هو وغيره من أهل عصره، وهي : سعي الرجل للحصول على المرأة، قطيعة المرأة، وتأبيها على الرجل، معاناة الرجل، وهذا متضمن في الأبيات السابقة، كما هو متضمن في الأبيات الأخرى التي يشكو فيها معاناته من نساء أخريات، من مثل عقيلة التي بخلت ولم تمنحه الزاد، والزاد وسيلة الإنسان لمواصلة الحياة(25)

ضنَّت عقيلةُ لما جئتُ بالزاد وآثرتْ حاجةَ الثاوي على الغادي

يستغيث بالرجال لكن دون جدوى، على الرغم مما تحمله استغاثته من لوعة وحزن، فتسيطر عليه حالة من اليأس، هي ذات الحالة التي عاناها الأموي الذي أبعد عن السلطة، وأغرق في متاهات من الخبالة والضياع (26) :

يا لَلْرِجالِ لِوَجْدِكِ المُتَجَدِّد ولِما تُؤَمِّلُ من عَقيلَةَ في غَدِ
ترجو مواعِدَ بعثُ آدَمَ دونها كانت خبالاً للفؤادِ المُقْصَدِ

إن مواعيده وهم لن يتحقق،وقد كنّى عن لامعقوليتها بأن" بعث آدم دونها"،و يستسلم للتقرير في الشطر الثاني ليؤكد فساد هذه العلاقة التي كانت وهماً، وخبالاً . وفي سلامة القس المغنية التي تعلق بها الأحوص تعلقاً شديداً يقول :(27)

أسلامُ هل لمتيّمٍ تنويلُ أم هل صرمت وغالَ ودَّك غولُ
لا تصرفي عنّي دلالك إنه حسنٌ لديّ وإن بخِلْتِ جميلُ

الرقة الأسلوبية تكشف عن شاعرية لا مثيل لها وشفافية نستغرب أن يملكها شاعر متهم في سلوكه، لقد امتلك الوسائل اللغوية وطوعها لتلائم هذه المعاني، لتلائم الطلب بكل ما فيه من رجاء وخوف الرفض، ونذكر من هذه الوسائل اللغوية النداء بأداة القريب " أ " والترخيم في النداء "سلامُ " إنه ينادي السلام الذي يحتاجه ويتمنى أن يناله قريباً،وتسري إلينا رعشته الخائفة وهو يستفهم مرتين، وتكرار الاستفهام يعني وجود مجهول مبهم والاستفهام هنا عن وجود وغياب الود الذي يغتال من مجهول نكرة كما تؤدي صيغة " غول " النكرة، مما يكثف من الطاقة الشعرية الدالة .أما النهي فقد تجاوز الأمر إلى الرجاء بالسياق الذي ورد فيه في البيت الثاني.

---

(24) شعر الأحوص الأنصاري،ص 191
(25) شعر الأحوص الأنصاري، ص112 .
(26) شعر الأحوص الأنصاري، ص109 .
(27) شعر الأحوص الأنصاري، ص174

مرة أخرى يناشد سلام برقة الترخيم ونداء القريب، أن تعفو فهو أسيرها المعنى وأن تطلق سراحه وتفك قيوده، وسواء أكان هذا الشعور من سلام أو غيرها فإنه يتواءم مع الإحساس بفقدان السيطرة على النفس واستلاب الإرادة في المجتمع الذي كان يعيش فيه الأحوص الأنصاري : (28)

أسلامُ إنك قد ملكتِ فأسْجحي قد يملك الحر الكريم فيُسْجِحُ
مُنّي على عانٍ أطَلْتِ عناءه في الغُلّ عندك والعناةُ تسَرّحُ

الآن أضحت سلامة همه، ويبدو أن معاناته أشد معها، وتبدو قسوة المعاناة من إلحاحه على المفردات الدالة عليها، ففي أبيات قليلة :{ سقاما، نكس الداء،الوجع الغراما، همي، دائي، شر الداء ما بطن العظاما، دمع العين يجري على الخدين .. يبيت الليل يهذي مستهاما } . وقد منح إحساسه بالمعاناة سمة الديمومة والتجدد بوسائل لغوية عديدة تشير إلى طواعية اللغة في يده لتلبي حاجته الشعورية وتكشف عن طاقته الشعرية، ومن هذه الوسائل : استخدام المفردات الدالة على عودة المرض في علاقات من الإضافة والعطف { نكس الداء والوجع الغراما } استخدام المضارعة {يجري، يبيت الليل، يهذي } استخدام الجملة الاسمية { إنها همي ودائي، شر الداء ما بطن العظاما } في قوله(29) :

ألا هاجَ التذكُرُ لي سقاما ونُكْسَ الداءِ والوجعَ الغراما
سلامةُ إنها همّي ودائي وشرُّ الداءِ ما بطَنَ العظاما
فقلتُ لها ودمع العين يجري على الخدين أربعةً سجاما
عليك لها السلامُ فمن لصَبٍّ يبيت الليل يهذي مستهاما

و يلح على معنى معاودة النصب من سلامة، وغزارة الدموع مما يعانيه من حبها، واقتراب لحظة الفراق في قصيدة أخرى يقول فيها (30):

عاودَ القلبَ من سَلامَةَ نَصْبُ فلعيْنَيَّ من جوى الحُبِّ غَرْبُ
إنه قد دنا فِراقُ سليمى وغَدا مَطْلَبٌ من الوصلِ صعبُ

و كما نلاحظ، لا تختلف هذه المعاني عما ورد في الغزل العفيف، إنها تبدو شكوى واحدة من المرأة، وما تسببه من ألم وحرمان إذا ما ابتعدت عن طالبها، هذا الألم الذي سكن المفاصل، والعظام، والكبد، والفؤاد، والقلب، وقاد إلى السقم، والحين أو الموت . ففي الشعر الأموي يبدو الموت المصير الحتمي للعاشق، لأنه يؤدي إلى الظمأ فلا يرتوي عاشق من معشوقته الموسومة بالبخل ووعورة المسلك، وأمام مخالفة الأحداث لحقيقة الوقائع نجد أنفسنا أمام مدلولات جديدة تبثها دوال في سياقات مختلفة، تبين خصوصية تجربة الشاعر كما في شكوى الشاعر من أم جعفر التي لا يعرفها أبداً، ومع ذلك تشف عن كثير من الألم(31):

و إنّي ليدعوني هوى أمِّ جَعْفَرٍ وجاراتِها من ساعةٍ فأجيبُ
وإني لآتي البيت ما إن أحِبُّهُ وأكثرُ هَجْرَ البيتِ وهو حبيبُ
تَطيبُ ليَ الدنيا مِراراً وإنها لَتَخْبُث حتى ما تكادُ تَطيبُ
وإني إذا ما جئتكم متهللاً بدا منكم وجهُ عليّ قَطوبُ
وما زِلْتُ من ذِكْراكِ حتى كأنّني أَميمٌ بأفياء الديارِ سَليبُ
أَبَيْتُكِ ما ألقى، وفي النفسِ حاجةٌ لها بين جِلْدي والعظامِ دَبيبُ
فلا تَتْرُكي نَفسي شَعاعاً فإنها من الحُزْنِ قد كادتْ عليك تذوبُ

---

(28) شعر الأحوص الأنصاري، ص89 .
(29) شعر الأحوص الأنصاري، ص 198 .
(30) شعر الأحوص الأنصاري، ص74 .
(31) شعر الأحوص الأنصاري، ص78

ويتجاوز كثرة الأسماء الأنثوية نجد تطابقاً في استخدام الدوال على الشكوى، ومشابهة في التوظيف، إذ تقوم العناصر المختلفة بالوظائف ذاتها، التي أدتها في أشعار أصحاب الغزل العفيف، فالحمامة تفجع على من فقدته، وتعبر عن حالة الشاعر قال الأحوص (32):

وهاجَ ليَ الشوقَ القديمَ حمامةٌ على الأيْكِ بينَ القَرْيَتَيْنِ تَفَجَّعُ
مُطَوّقَةٌ تدعو هَديلاً، وتَحْتَها له فَنَنٌ ذو نَضْرَةٍ يتزَعْزَعُ
وما شَجْوُها كالشّجْوِ منّي ولا الذي إذا جَزِعَتْ مثْلَ الذي منه أَجْزَعُ
فقُلْتُ لها لو كُنْتِ صادقةَ الهوى صَنَعْتِ كما أَصْبَحْتُ للشَوْقِ أَصْنَعُ
و لكن كتمْتُ الوجْدَ إلّا تَرَنُّما أطاعَ له مِنّي فؤادٌ مُرَوَّعُ
و ما يستوي باكٍ لشَجْوٍ وطائرٌ سوى أَن يدعوَ بصَوْتٍ وتَسْجَعُ
فلا أنا مما قد بدا منك فاعلمي أَصَبُّ بعيداً منكِ قَلباً أَوْجَعُ

الأبيات غنية، تشي بكثير من أسباب المعاناة، وأولها القلق المستمر الذي يؤديه الفعل المضارع " يتزعزع " والخوف الذي لا ينتهي في صيغ فعلية أحياناً واسمية أخرى، فالجزع الآن، وفي المستقبل في صيغة " أجزع " والروع وقع على الفاعل فأصبح سمة دائمة إنه " فؤاد مروّع " والعناصر الصوتية تغذي النص بدلالة رافدة تؤكد صدق الإحساس

أبرزها عنصر القافية، إن العين أقوى الأصوات إسماعاً وأكثرها قدرة على التعبير عن صرخات القهر، بما يتناسب مع الدموع المذروفة، ودعاء الحمامة لفقيدها، هذا الدعاء اليائس الذي لا يلقى إجابة، ومع ذلك لا تتوقف الحمامة عن ندائه لقد اتخذ الشاعر من الحمامة معادلاً يقيس بها معاناته، ورجحت كفته بما وضع فيها من القهر الناتج عن الكبت وكتمان الوجد بل هو يشكك في صدق الحمامة لأنها تردد صوته الذي ينادي مفقوده .

و الخوف ملازم بسبب حالة القلق التي لا تنتهي والتي كانت سمة مميزة للفترة التاريخية وقد وجدنا عند أصحاب الحب العفيف الخوف ذاته من المستقبل الذي يمزق جسد الجماعة، والأحوص يبكي من خوفه من النوى قبل أن يحدث، أو لنقل من خوفه من فقد ما بيده(33):.

لقد كنت أبكي والنوى مطمئنّة بنا وبكم من علم ما البين صانع

وتلازم الأحوص حالة الحزن، إنها حالة يعيشها كل يوم، وهو لا يحدد سبب هذا الحزن، وقد اكتفى بصرخة احتجاج بأسلوب استفهام استنكاري : " أفي كل يوم حبة القلب تقرع " " أبالجدّ أني مبتلى كل ساعة "، هذا التواتر المؤلم الذي يتكرر كل ساعة، وكل يوم، يجعله يشعر بحركة أبدية لإيقاع الحزن، ولا يأمل بعده بانفراج، أيضاً تتواتر دمعات العين مع فراق الأحبة، وتتلاقى مع المسببات الأخرى غير المحددة، فالذي يقرع حبة القلب مجهول، لقد أتت صيغة البناء للمجهول لتضفي هذا الغموض الرهيب على العوامل التي تقهر الشاعر " حبة القلبِ تُقْرَعُ " " مُبتَلى كلّ ساعة بهمّ " ومع هذا التكرار تأبى النفس أن ترضى وتقنع، وتعتاد على الألم، لأن التعوّد يقلّل من شأنها، وهي ليست بقليلة الشأن(34)

أفي كُلِّ يومٍ حَبَّة ُ القلبِ تُقْرَع ُ وعَيْني لِبَيْنٍ من ذوي الوُد ّ تَدْمَعُ
أبالجِدِّ أنّي مُبْتَلىً كُلَّ ساعةٍ بِهَمٍّ له لَوعاتُ حُزْنٍ تَطَلّعُ
إذا ذهبَتْ عنّي غواشٍ لَعَبْرَةٍ أظلّ ُ لأخرى بعدها أتَوَقَّعُ
فلا النفسُ من تَهمامِها مُسْتَريحَةٌ ولا بالذي يأتي من الدهر تَقْنَعُ
وأولِعَ بي صَرْفُ الزَمانِ وعَطْفُه ُ لِتَقْطيعِ وَصْلِ خُلّةٍ حين تَقْطَعُ

---

(32) شعر الأحوص الأنصاري، ص137–138 .
(32) شعر الأحوص الأنصاري، ص137–138 .
(33) شعر الأحوص الأنصاري، ص147 .
(34) شعر الأحوص الأنصاري، ص137 .

وكثيراً ما يجمع العناء إلى الكآبة والشوق وحس الاغتراب(35) :

طَرِبْتَ وأنت مَعْنيٌّ كئيبُ وقد يشتاقُ ذو الحَزَنِ الغَريبُ

و لعل رفض المرأة ونفورها منه،مع ما يتمتع به من حس رقيق ومشاعر مرهفة، قد زاد مأساته عمقاً (36):

أَبَى قَلْبُها إلَّا بِعَاداً وقَسْوَةً ومَالَ إليها وُدُّ قلْبِكَ أَجْمَعُ

وتبدو المشابهة مع شكوى العشاق الموصوفين بالعفة أعمق، إذا ما تتبعنا مواطن الألم في ذات الشاعر، أي القلب، والكبد والفؤاد،و العظام . وما يشكوه من السقام الذي لا يشفيه طبيب،و إنما المعشوقة فقط قادرة على بعث الشاعر،وتجديد الحياة في أوصاله، إن شاءت، وإن شاءت قتلته(37) :

و قد جئْتُ الطبيبَ لسُقْمِ نفسي ليشفِيَها الطبيبُ فما شفاها

و كنْتُ إذا سَمِعْتُ بأَرْضِ سُعْدى شَفَاني من سَقامي أَن أَراها

فمن هذا الطبيبُ لسُقْمِ نفسي سوى سُعْدى إذا شَحَطَتْ نواها

تبدي الأبيات تجربة استشفاء فاشلة أصابت الشاعر بالخيبة واليأس، فقد تحققت زيارة الطبيب كما تبين " قد " قبل الماضي " جئتُ "، وقد فعل ذلك بنفسه على سقمه كما يشير الفاعل المفرد " تُ " آملاً أن يخلص من سقمه النفسي، ويأتي النفي معبراً عن هذه الخيبة . وتكشف الأبيات عن أن الطبيب القادر على تخليصه من حالته هو : " أرض سعدى "، هذا يعني أنه يبحث عن الاستقرار وتسكين الاضطراب والقلق، فالأرض فقط تحقق الاستقرار، وليست أية أرض قادرة على ذلك، لقد أضاف الأرض إلى سعدى بما تستدعيه من مدلول : "السعادة " أولنقل أرض الأحلام أو الفردوس المفقود.إن رؤية أرض سعدى تشفيه من سقمه، لأن الأرض تتحول من الحلم إلى الواقع المرئي .

و السقم الذي يعانيه جسدي،و نفسي وآثاره الجسدية لا يمكن إخفاؤها (38):

ما عالجَ الناسُ مثلَ الحبِّ من سَقَمٍ ولا برى مثْلُهُ عظْماً ولا جسدا

ما يَلْبَثُ الحبُّ أن تبدو شواهدُهُ من المُحِبِّ، وإن لم يُبْدِهِ أبدا

و لعل الآثار الجسدية من ذبول ونحول، وسهر ودموع، تجعل الشاعر غير قادر على كتمان معاناته، فيشكو آملاً أن ينفث ما في صدره فيبرد، لكن حالته مع ذلك تزداد سوءاً (39):

أَضْمَرْتُ ذاكَ زَماناً ثم بُحْتُ به فَزادَني سَقَماً بَوْحي وإضْماري

أَخْفَيْتُ في العُرْفِ هذا النُّكْرَ ذلكمُ فَصَرَّحَ الوَجْدُ عن عُرْفي وإنكاري

ومحاولة إخفاء الوجد وعدم البوح بالحب سمة من سمات شعر الاتجاه العفيف، وهي ظاهرة بوضوح في بعض شعر الأحوص ما يجعل نسبته إلى أصحاب الغزل الحسي أمراً مشكوكاً فيه(40) :

و لكن كتمْتُ الوجْدَ إلّا تَرَنُّما أطاعَ له مِنّي فؤادٌ مُرَوَّعُ

و أُخْفِي إذَا اسْتَخْبَرْتُ أَشْيَاءَ كارهاً وفي النَّفْسِ حَاجَاتٌ إليها تَطَلَّعُ

وكتمان الرغبة لا يفعله من يتبع وسائل اللذة الحسية(41):

و التوسل إلى الحبيبة، بهذه الضراعة، يؤكد أن الشاعر لم يكن ليحظى بحبيبته بسهولة، إذ تبقى منية النفس والروح . و تكشف أبيات الأحوص عن حاجته إلى قوة خارقة تنقذه مما هو فيه فيتجه بشكواه إلى الله كي ينجيه من محنته (42) :

إلى اللهِ أشكو لاإلى النّاسِ حاجتي و لا بُدَّ من شكوى حبيبٍ يُرَوَّعُ

---

(35) شعر الأحوص الأنصاري، ص80 .
(36) شعر الأحوص الأنصاري، ص139
(37) شعر الأحوص الأنصاري، ص207
(38) شعر الأحوص الأنصاري، ص 106.
(39) شعر الأحوص الأنصاري، ص133
(40) شعر الأحوص الأنصاري، ص138
(41) شعر الأحوص الأنصاري، ص140 .
(42) شعر الأحوص الأنصاري، ص140 .

إنـه– فـي بعـض الأحيـان – ييـأس مـن رحمـة المـرأة التـي تسـلب العقـل، وتأسـر القلـب، وتقـرح الكبـد علـى الـرغم مـن التوسـل والتضرع(43) :

ألا فارحمي من قد ذهبْتِ بعقلِه فأَمسى إليكم خاشعاً يتضرَّع

و استلاب العقل أيضاً من المعاني التي وضحت في أشعار الحب العفيف، وتكررت في شعر الأحوص (44):

كأنك من تذكر أم حفص، وحبل وصالها خلق رمام

صريع مدامة غلبت عليه تموت لها المفاصل والعظام

لم تكن المرأة لتحظى بمثل هذا التأثير في شعر الشكوى، لو لم تتجاوز المدلول الجنسي لتصبح حلم الرجل الذي لا ينسى، و لا يطال(45) :

إذا قُلْتُ هذا حين أسلو ذَكَرْتُها فظلّتْ لها نفسي تتوقُ وتنزِعُ

و هكذا نصل إلى أن الشكوى من المرأة في شعر الأحوص،لم تكن شكوى من الزوجة، أو الأم، أو الأخت، وإنما هي شكوى من معشوقة حلم تتأبّى عليه، وترفض أن تعيده إلى الفردوس الذي حلم به، والذي أخرجته منه، إنه حلم آدم منذ بدء الخليقة بالعودة إلى الجنة حيث الأمن، والاستقرار، وصفاء العيش، ينهل من ملذاتها ما يشاء،إنه حلم التحرر من الأسر والانعتاق خارج حدود الزمان وخارج حدود المكان في المطلق " أرض سعدى "، التي أعطاها بعداً بين التعريف والتنكير، ليسرح الخيال في فضائها حاملاً على جناحيه رجلاً عنّاه القمع، وأسقمته الرغبة فيما لا يُطال، وأهزله الحرمان، فبكى بكاء شجيّاً وهيهات أن تعيد الدموع ما أخذته الأيام .

هكذا تتكرر المعاني التي وجدناها عند أصحاب الحب العفيف في شعر الأحوص الأنصاري، لتزيد من شكنا في انتماء شعره إلى تيار الحب الصريح .

---

(43) شعر الأحوص الأنصاري، ص140

(44) شعر الأحوص الأنصاري، ص189

(45) شعر الأحوص الأنصاري، ص141

المراجع:

.....

(1) الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثالثة .

(2) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية،، القاهرة 1369هـ-1950م .

(3) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان،ت: عبد الحليم النجار،جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار المعارف، مصر، ط4، 1977 .

(4) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرىء القيس إلى ابن أبي ربيعة، د. شكري فيصل،دار الحياة، بيروت، ط3، 1965 .

(5) حديث الأربعاء، د.طه حسين، دار المعارف،، مصر، ط12، 1976 .

(6) شعر الأحوص الأنصاري، ت :عادل سليمان جمال، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية،، القاهرة / 1970 .

(7) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر 1966

(8) الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط4، 1979 .

(9) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، عناية محمود محمد شاكر، مطبعة مدني،القاهرة، 1974م .

(10) الغزل في عصر بني أمية، د. إحسان النص، دار الفكر، دمشق، 1976 .

(11) كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت: مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار الهجرة،، قم، إيران، 1405 هـ، ج5 .

(12) لسان العرب، ابن منظور، إعداد وتصنيف يوسف الخياط،نديم مرعشلي، دار لسان العرب، بيروت

(13) مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، 1989، صادرة عن وزارة الإعلام، الكويت .

(14) معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر،و دار بيروت، بيروت 1404هـ، 1984م .